

كلمة الشعرية ذات المنحى الثوري والبعد التحريري في الشعر الجزائري الحديث عتاتي فائدة

الكلمة الشعرية ذات المنحى الثوري والبعد التحريري في الشعر الجزائري الحديث

أ. عتاتي فائدة¹

I - الفعل الثوري في رحاب الإبداع الشعري:

يقول مفدي زكرياء في (في (شهادة الجزائر): (1)

ولطع صوت الرصاص بدوي	لغصاف البراع غرافات حمر
ونلتي المدافع صوغ الكسلا	م إذا لم يكن من شوالف وجمر
ونلتي القنابل طبع الحسرو	فما إذا لم تكن من سبائك حمر
ونلتي الصفايح نشر الصسحا	نف ما لم تكن بالقرارات تسري
ويأبى الحديد استماع الحديث	إذا لم يكن من روائع شعري

إن هذه الأبيات هي بحق نموذج صافي للنص الثوري، الذي يتسم بالمباشرة والتقريرية في الأسلوب، وينزع إلى الإفقاع المجنول والصورة الحافلة المستقطعة.

وتشير -في شهادته- إلى أن مقارنة النص الثوري من منظور فاعليه الكلمة الشعرية وأهميتها في التفع الثوري- سلاح لا غنى عنه في كل عمل حربي مسلح- يعد بمثابة نزع ممتعة في حلول من الأسجاد المشرفة، والبطولات القوية التي حفظها مجاهدوننا الأشراف، كما بعد تلقيا مشوقا في دلالة الكلمة الإبداعية ذات الأبعاد الثورية، التي تكونت في رحم الرقص والتمرد، وتلجرت عبر الممارسة المسنحة والمواكبة الملحة والمتعاقبة لكل إنجاز ثوري تحقق عظم أرض الواقع. إنها بحق رحنة ممتعة تتكشف عبرها وبضمنها روعة الحدث الثوري وعفوية الكلمة المصلحية له.

الشعر بين الثورية والتمرد:

إذا كان التمرد في أحد معانيه -الأكثر شيوعا- حركة ارتجائية لا تنتج عنها في أرض الواقع، أو احتجاجا غامضا لا ينطوي على نظام واضح أو مذهب مؤسس، فإن الثورة على العكس من ذلك تماما، فهي محاولة هادئة لتكثيف العمل وفقا لفكرة ما، ابتغاء تشكيل العالم داخل إطار نظري، (2) ذلك لأنها عملية تغيير جذري مؤسس، بتغيير أهدافها واضحة، ويصير إلى تحقيق نتائج محددة سلفا، كما أنها تظهر جازف وشامل يقتل الأشخاص (غير الفاعلين) والمهادن (المسلية) ليؤسس لتغييرها.

إنها انتقال من حال السلب إلى حال الإيجاب، ومن وضعية السكون إلى وضعية الحركة، ومن موقف المتفعل إلى موقف الفاعل. من هذا المنطلق ووفق هذا المنظر، كانت الثورة الجزائرية تحديا على مستوى

¹ - أستاذ مساعد مكلّف بالدروس - قسم اللغة العربية و آدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة سبدي بلعباس - الجزائر.

الكلمة الشعرية ذات النحي الثوري و أبعد التحريري في الشعر الجزائري الحديث عفاي قادة
 الوجود الحضاري للأمة الجزائرية، ومقارنة مستمينة وعديدة للمستمر الغاشم بالوسائل والأشكال المختلفة
 المسلحة آنذاك، من عقائدية فكرية، واجتماعية سياسية، وبشرية مادية.
 في رحم هذا التحدي، وفي أتون هذه المقاومة العديدة، كتلت الثورة (الثورية) امتدادا إيجابيا وثمره
 حقيقية، ولتتاجا ميركا تليدور فرسها الشعب الجزائري المقاوم مع تعاقب الفصول في هذه الأرض الثائرة.

ثورية الشعر أم شعرة الثورة:

وكما هو غير خاف على أحد، فإن الشعر الجزائري، آنذاك لم يكن بمعزل عن هذا التحدي، بل يمكننا
 القول- ودون مبالغة - أن هذا الشعر هو الذي أنشأ الثورة ووقف إلى جنبها دعوة وإغراء- على حد تعبير طه
 حسين (3) - وهو الذي عجل بتفجيرها، من خلال بثه للوعي السياسي التحريري واستنهاضه لاهم وتيرة
 بالمتنفر، وهذا ما نراه في قول الشاعر (ابن رحمون)(4)

ويضيق بي ربح الوجود، إذ أرى هذي الهائل فرسة الجنداء

بل ويتجلى في جمعة صريحة لا مواربة فيها إلى الثورة والتضحية وفداء الجزائر بالتفليس والتفليس كما
 في قول (موسى الأحمدي)(5)

ضحوا النفوس لشعب فالتشعب من تلك أغلى
 عيشوا كراما أيضا قللوا في الموت أغلى

هكذا يمدد الشعر للثورة، وهكذا يمسح الاتجاه نحو العنف الثوري- في الكلمة الشعرية قبل الواقع-
 ضرورة ملحة والتزاما لا مناص منه، وتصبح المقاومة المسلحة اختيارا حتميا لا رجعة فيه، وهذا ما نجده عند
 الشاعر (أحمد سحنون) صراحة، حيث يقول: (6)

إن التشقق بالسياسة وحده من غير تضحية لمن شر العيوب

تودي الواقع وتغلب الخطاب:

ويبلغ الأمر مداه الأقصى في الوضوح والتفريعية، والدعوة للتضحية إلى حمل السلاح وإفلاق جنود
 الخائفين، عبر خطاب عنيف ومباشر، بغية تجاوز الراهن المتردي والانتصار على الواقع المسالوي، من خلال
 دعوة الشباب إلى تحمل مسؤولياتهم المتوقعة بهم. وهذا ما نجده عند (عبد الحميد ابن باديس) في تشيد (شعب
 الجزائر مسلم) حيث يقول: (7)

بما نشء أنت رجلانا بك أصبح قد اقرب
 خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب.
 واقطع جنود الخائفين قمته كل المعسكرب

أما عند الشاعر (أحمد بن ذياب) فإن الاقتدار لم يعد ممكنا الآن، فإما الحياة وإما الغداء: (8)

فهبوا بنا للوغي والتضال فما نحن إلا ضحايا الزمن

خلقنا لنحي حياة تكرام قبلها الحياة وإما الفساد

ويقطع الشاعر (أحمد سحنون) شوطا كبيرا، في غلبة الخطاب المؤسسة لتبليغ الفعل الثوري
 العنيف، عبر دعوة جريئة وصريحة إلى تولى إستراتيجية الفعل الثوري وسيلة والاستقلال والتحرر غاية، حيث
 نراه يقول: (9)

آن أن يهجر الكرى الأحرار ويلبوا لحظهم ويغاروا

الكلمة الشعرية ذات النحى الثوري و أبعد التحريبي في الشعر الجزائري الحديث عقالي قادة

آن أن تحطم القسود بسلك
لن فيها ايها وعز الجار
لن على القيد في الحياة فقد ثار
عشيه أبوك الأحرار

وهذه المعاني نفسها يكررها كل من حمود رمضان وأبي اليقضان، ومحمد التلقلي بن المساتح ومحمد الهادي الزاهدي ومحمد العيد آل خليفة وغيرهم في الكثير من قصائدهم (لما قيل - ثورية) ليكون في الأخير تشيد (من جبالنا طلع صوت الأحرار) - بعد عام من (سجائر الثامن ماي) تتوجها لهذه الدعوات الثورية الصريحة - صرخة من الأعماق تطبق بها لسان مفدي زكرياء: (10)

من جبالنا طلع صوت الأحرار
بنادينا للاستقلال
بنادينا للاستقلال
لاد - لال وطننا
تضحياتنا للوطن
خير من الحياة
أضحى بحياتنا
وبمالي عليه

فلا غرابة - إن في أن نسبق (ثورة الفكر والشعر) (ثورة الفعل)، ولا غرابة في أن يبشر (القول الشعري) (بالفعل الثوري) ويكون فتيحة المشتعل، ذلك لأن "هدف الشعر هو تغيير الحياة" كما يقول (رامبو) (11) كما أن "الشعر رؤيا بفعل والثورة فعل برويا" كما يقول أوتيس (12) فلتتجادل بينهما قلم، ولتتأثر متبادل، ففي كل مكان يوجد الشعور المسبق بالقرابة العميقة بين الإبداع الأدبي والثورة" كما يرى الأستاذ (امواردو موروسو). (13)

فالقول الشعري ذي الأبعاد الثورية، هو دوماً ذلك الخط الذي يربط بين الأعماق الملتبسة المستورة بقرماد، والواقع الخافي البليد الذي يعيشه معظم الناس في فترات التلاصق والقسر والاستبداد فيحيل الناس إلى أمل والقسر إلى الظلمة والاستبداد إلى حرية (14) ذلك لأن الشعر هو فن المقاومة بشكل عام. (15) فالخطاب الشعري، هو الذي أسس لوعي الثورة، وهو الذي حمل رسائلها قبل الفجرها، والشعراء هم رسالها الذين بشروا بها، وأشعلوا نارها وكتبوا لسانها الصاقي الذي بلغها أحسن تبليغ إلى الجماهير المتمثلة من ضيم المستعمر وبؤسه، فتورة الأثاب هي التي تمهد لثورات الشعوب وتضرم نارها، والبؤس نفسه - مهما كانت درجته - لا يحرك الشعوب ويحفزها، وإنما يحركها الوعي به، والأثاب هو الذي ينقل هذا الوعي ثم يستنوره. (16) إن الخطاب الشعري الثوري ممثلاً في الكلمة الحاصية الصافقة، هو الذي يتولى مهمة إيقاظ الجماهير وتنبيهها إلى واقعها الأليم، وهو الذي يستنهض هممها، وهو الذي يهيء النفوس لمرحلة المقاومة والاحتجاج والتمرد والمواجهة، وهو الذي يمهّد لمرحلة الكفاح المسلح والفعل الثوري الفعّال والمغير، وهو الذي يلهب نار الثورة، ويسمع دويها، وينقلها إلى الأمام دفعا، ويكون لسانها التاطق، والمتنقي بأمجالها.

3 - أسبقية الإنجاز الشعري دليل أصالة الفعل الثوري:

إن الإنجاز الشعري الكبير الذي حققه شعراء الثورة الجزائرية، كان بلا مواربة، دليلة ناصعا على أصالة الثورة الجزائرية وصدقيتها، ذلك لأن هذا التساوي وهذا التأخذ بين نهوض المقاومة المسلحة وإبناقية الحركة الشعرية، لدليل قاطع على أصالة الثورة وثباتها من أرواح الناس، من صميم أرواحهم لا من سطحها، ففي الممكن القول بأن العكس ثورة ما في أدب أصيل وغنى لهو برهان ساطع على صدق هذه الثورة في التعبير عن الضرورة التاريخية (17) لهذا الشعب.

هيمنة الخطابية/انتفاء الشعرية:

نحل ما نبع فيه هؤلاء الشعراء، وبرعوا فيه، هو ما يمكن أن نسميه (النص/الحدث) أو (النص/الواقعة) أو (النص/الصدى)، أو بعبارة أدق (القصيدة-الخطبية)، التي تنزع إلى الإيقاع المجلجل واللفظة المدوية والصورة الخائفة الساكنة، وذلك لأنشأب متعددة-ليس هذا مجال نكرها- لم يمتكوا من إيقاع نموذج شعري لايحتذي ويطلع إلى تجاوزه، لأن الهدف الرئيسي لهؤلاء لم يكن الإبداع الأدبي والتجاوز الفني بقدر ما كان استنهاض الهمم وتحرير الوطن، بتوصيل وعي الثورة إلى الأذهان وحفرها في الأرواح، عبر أقصر الطرق وأبلغها تأثيرا. واعترافات الشعر أنفسهم في هذا المجال كثيرة ومتعددة، ولعل أبلغها ما تجده في مقدمة (أطلس المعجزات)، لصالح خرفي حيث يقول: "لا أستكف أن أجد نفسي غير مرة، في موقف خطيب لا شاعر، ما دامت الثورة التي تلهمني تجعلني كأبي صخرة من صخور الأطلس الشامخ أهيب بالثوارين الأحرار.

وإذا كان العمل الفني في حاجة إلى (هدأة) فتلك التي لم يكن في وسع الثورة المتجددة مع الضللك والثواني، أن توفرها لنا، ولم يكن في وسعنا أن نمر بالحادثة التاريخية مر الكرام، سعيا وراء الفن الأمثل". (18) ويقول (مغدي زكريا) في كلمة ديوانه (الذهب المقدس)، في السياق التبريري نفسه "لم أعن في (الذهب المقدس) بالنص والصناعة عابثي بالتعينة الثورية، وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلمي غسستها في جراحاته المظلمة، والشعر الحق في نظري، إلهام لا فن، وعقوبة لا صناعة" (19) وما غير عنه (خرفي) و(مغدي) نثرا، عبر عنه (خمار) شعرا. فكمال هو الآخر، لم يطلب لشعره أبعد من الصدى الصافي المعبر عن الثورة، ويخجل من أن تقصر يداه عن هذا الهدف، أو يقعد شعره عن هذا المطلب العزيز الجانيب، إنه يريد أن تكون أشعاره قادرة على أن ترقى إلى صعيد (المدافع الرشاش)، وإذا تلحنت في وجه طيفتهما المارقة فوا حجة الشعر والكلمة، (20) يقول:

أبسن مني قصيدة تنتضي	من قصيد يفيض حبرا أبا
أبسن مني أخنية للبلد	من هتاف غطي الربوع دوبا
أبسن مني وفي الجزائر أهسا	ت، تهز القلوب هزا قويا
يا هزاري، إذا رفعت مع لثوا	ر صوتي ولم يكن منفعيا (21)

فمن هذا المنطلق تسامح الشعراء الذين ولقبوا الثورة في الاحتكام إلى النظرة الفنية المجردة في بناء القصيدة، ووجدوا لهم شاعرا في ذلك المضمون البطولي الصارخ الذي لا يطبق الانتظار، وربما لمسوا في القالب الحماسي، ما يتجاوب مع ضجيج المعركة وجلجلة سلاحها، فرفعوا قصائدهم صورة لأدب (المنفعل) وكان بالأمن صورة لأدب (الفاعل) (22) أعني قبيل الثورة.

هكذا برهن شعراء الجزائر إبان الثورة التحريرية المباركة بإمكانيتهم الفنية المتواضعة، برهنوا بما لا يدع مجالا للشك على أن "الواقع المباشر يمكن رفعه إلى ألق شاعرية دونما أي سقوط في الإنزال الثوري" (33) أو التقديرية المفقوتة، كما برهنوا على أن (الكلمة الصافية) يمكن أن تستحيل (رشاشا) مدويا في وجه العدو، نقض مضجعه، وتستثير رعبه، وتكون في الجانب الآخر ملهمة للثوار وحمالة هموم شعب بنشد الحرية والاستقلال.

الإحالات:

1. مفدي زكرياء: إحياء الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت.
2. بنظر: إبراهيم رماني، أوراق في نقد الأدبي، دار الشهاب للطباعة والنشر، (باتنة) الجزائر، ط 1، 1983، ص: 34.
3. طه حسين، خصام ونقد، دار العلم للملايين، ص: 157.
4. بنظر: إبراهيم رماني، أوراق في النقد الأدبي (م.س)، ص: 51-52-53، طه حسين، خصام ونقد، دار العلم للملايين، ص: 157.
5. بنظر: إبراهيم رماني، أوراق في النقد الأدبي (م.س)، ص: 51-52-53.
6. بنظر: إبراهيم رماني، أوراق في النقد الأدبي (م.س)، ص: 51-52-53.
7. بنظر: إبراهيم رماني، أوراق في النقد الأدبي (م.س)، ص: 51-52-53.
8. قبلت هذه الأبيات بعد مجازر 8 ماي 1945، حيث سبقت هذه الثورة للشعرية الثورة الفلجية بسنوات وهاجت النفوس لها.
9. بنظر: إبراهيم رماني، المرجع المذكور مسبقاً، ص: 53.
10. بنظر: ج.ن، ص: 44.
11. عن (ج.ن)، ص: ن.
12. إيفارد موروسيو، الفكر الفرنسي المعاصر، ترجمة: عبد الحفيظ، منشورات عويدات باريس/بيروت، ط 1-1978، ص: 15.
13. حنا مينة و.د. نجاح العطار، آقب الحرب، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1976، ص: 76.
14. غالي شكري، أدب المقاومة، دار المعارف بمصر، ط 1، 1970، ص: 137.
15. بنظر: محمد منور: ثورة آقب، مجلة آأب، بيروت 1960، ص: 11.
16. بنظر: يوسف ساسي اليوسفي، الشعر العربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980، ص: 239.
17. د/صالح خرفي: أخلص المعجزات، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، 1968، (المقدمة).
18. مفدي زكرياء، الظلم المظلم (شعر)، المكتب التجاري، بيروت 1961 (المقدمة).
19. بنظر: د/صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1984، ص: 228.
20. أبو القاسم خمار، أوراق (شعر)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976، ص: 8.
21. بنظر: د/صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث (م.س)، ص: 227.
22. حيث يقول:

نحن في شعر ننظم البيت
زقزاقا نغنيه بالكساء القناجر
نحن شعر الرشاش لا شعر شاعر.